البرتقالة

قصة بقلم يعجي المدهون

عبوة ناسفة وفي ركن مظلم لبقايا بيت مجاور وجدت نفسي والذكريات وجها لوجه ، فاحسست بحرارة شمس تموز تخرج من مسام الجدران وتشوي جسدي النحيل ، وحين تخيلتهم داخل البيت ، شعرت بهم يضاجعون الليل في غرفة البيت الوحيدة فيحبل الزمن بآلاف المآسي وتنتشر سريعة على وجوه الفقراء في كل المخيمات ... تحسست صدري حيث رقدت العبوة الناسفة وعدت احدق من جديد في البيت الذي ضمني طفلا في المهد .

كان البيت مضاء من الداخل ، وكانت الاشعة المنبعثة من مصباح تخيلته معلقا في سقف الغرفة قد تساقطت على شجرة برتقال خضراء في طرف (الحوش) غمرت بضيائها احد جوانب برتقالة تدلت خجلى عن سطح انسور الى خارج البيت فكأنما ارادت أن تبتعد بروائحها كي لا تغتصبها الانوف الغريبة .

سألني ابي :

ـ ما اسم هذه البندقية ... ؟

ـ ملتينة (1) ..

اجبت بلسان لم يكتمل بعد اذ كنت في الثالثة من عمري .. ربت على خدي ثم قبلني ومضى . قالت امي بعد سنوات انه كان متوجها الى حيث انتظره الرفاق ليشنوا حربا عادلة .

قررت لحظتئذ ان اهدم البيت واعجن الذكريات ببقايا حجارته .. اختفيت سريعا في بطن الظلمة فتلاحقت انفاسي لاهثة كرغبة العبوة في الانفجار .

تساءلت امي : هذه المساحة الصغيرة يا ولدي .. لماذا لا نزرعها برتقالا ؟.

واضافت : اني لآنس لروائح الزهر حين تداعب هذين الخشمين الهرمين ..

ابتسمت رغم شعوري بلسعات حادة في حلقي فقد ايقنت انها تسعى جاهدة لاعادة ترتيب الذكريات بزرعها في المساحة المذكورة ... بعد ان بعدنا عن بياراتنا زمنا طويلا ....

تحسست العبوة وضبطت الزمن جيدا وكان عليّ ان ابدأ التسلل الى البيت .

ملاحظة : بيتنا يسكنه غرباء .... والتسلل في عصر الثورات حرية المقاتل ....

استجمع ابي ما تبقى لديه من قوة واعتدل في جلسته كي يستطيع ايصال اخر كلماته اليّ . ولم اكن اتصور في ذلك الوقت انني سأتحمل اعباء اسرة بكاملها .... كان اخي لم يتجاوز العاشرة بعد ، وكانت اختي الاولى ترقد في مرجيحتها المعلقة في سقف القرميد باربعة حبال ولم تتجاوز اشهرها الستة .. وكانت توأمها الاخرى ترقد في السرير مما اضطرني الى توزيع يدي بينهما انيمنى تهز بهذه ، والاخرى تدفع بالمرجيحة والطفلة تمسك بقدميها زجاجة الحليب الذي كنت قد احضرته لها هذا الصباح من مركز التوزيع التابع لوكالة الغوث ، واستشعرت همهمة خلفي ولم تمض لحظات حتى ظهر صوت ابي خفيضا وكأنما اتى من جوف بئر سحيق . ادركت لحظتها انه موشك على الرحيل . وانفجرت الاختان مرة واحدة في صراخ حاد قطع تواصل الاحرف القادمة من فم ابي فتساقطت دموعي على فماطة الطفلة في المرجيحة وامتزجت بلوحة حزن غير عادي . وتعالت صيحات الصبية في الخارج يتجادلون حول ادوارهم في القاء الكرة . كانت ضحكاتهم تنتشر بعذوبة على سطح البيت وتتسلل عبر الشبابيك والابواب الى مسامعي تحاول امتصاص الدموع الدافئة من عيني دون جدوى ، كانت ضحكاتهم لا تستطيع اختراق حاجز الحزن الذي احاط بنا جميعا وسكتت الطفلتان فجأة حين قال والدي :

ـ ابناؤنا يا ولدي يصبحون رجالا في سن مبكرة .... يكفيك النظر لجدران البيت او لاختيك حتى تدرك ما اريد ان اوصي ب ....

وانقطع الصوت فجأة .. نظرت خلفي ثم امامي .

وفجأة وجدتني احدق في البرتقالة من جديد فأرى ما يشبه الدمع ينساب عن حوافها المستديرة اوشكت لمرآه ان اقفز نحوها اقبلها وامسح بوجنتي دمعها المتقاطر في صمت حزين .

قالت امي : ادخل يا ولد البرد شديد في الخارج .

قلت ببراءة : لقد اعتدته يا امي

صرخت بي : خش وبلاش شيطنة وغلبة .

دلفت الى الخيمة وقد خبأت يدي في جيوبي فقد كنت حقيقة اشعر ببرد شديد ولكني اردت في تلك اللحظة ان اثبت ان رحيل الملابس عن جسدي الصغير لن يرهبه كثيرا . وما لبث البرد ان تحول الى صقيع وارتفع صفير الرياح في الخارج قادما من الغرب ما لبث ان سحب

(1) الاصل : مرتينة

معه الخيمة التي طارت مع ما طار من خيام واعتلت الصراخات كبد السماء الرمادية حتى شعرت بنفسي اكاد اسمع ارتعاش قلوب الاطفال في صدورهم واضحا كانفاسي .

كان الموعد قد اقترب من لحظات الاستعداد الاولى ، حين انطلقت اصوات من الداخل جعلتني اشد نفسي الى اعماق الظلمة بحذر ، ورحت انصت .

امـرأة : .....

رجـل : .....

امـرأة : ... (غاضبة) .....

رجل : ... (يحاول تهدئتها) .....

امـرأة : .....

فتح الباب فجأة وانطلقا خارج البيت واخذا في الابتعاد حتى امتصت المسافة بيننا اخر كلماته الغريبة .

ملاحظة : دار الحوار باللغة العبرية

قال اخي الاصغر : لن اصعد لهذه السيارة .. بدي تكسي .. وانا مالي . بعرفش .. بدي تكسي واصر على مطلبه مما جعلني وعمتي نحمله الى العربة بقوة رغم نشيجه المتواصل .

ملاحظة : بعد حوالي عشر سنوات بكى وهو يتذكر تلك الحادثة وقال : كان لا بد ان نوفر فرق الاجرة .. كان ابي في حاجة ماسة للحساء كي يتماسك جسده .

ورحت اتقدم ببطء وحذر نحو البرتقالة ، وتهت في لونها الذي بدأ كعيني امي وانقضت فجأة حين احسست بمضي الزمن سريعا وتمنيت لو توقف للحظة لكني استسخفت الامر وهكذا تسلقت الجدار وقفزت الى حوش البيت فتقمصتني الذكريات من جديد واحاطت بـي كستار حديدي ولم تقـو قدماي على الحركة .

ـ اسم الله عليك يا امة ... صه .. صق .. صق .. صق .

ـ آه .... اخخخخ .. اي .. اوى .. امممم ؟

وحملتني بين ذراعيها .

العتبة حيث تعثرت في طفولتي تقف الان امامي كسور الصين وتصر على الثبات عند ذكرى تلك الحادثة حين جرحت ركبتي الصغيرة ولما كان الزمن يمضي فقد شددت نفسي بقوة انتزعها من بحر الذكريات لصالح المهمة التي قدمت من اجلها ، دلفت الى غرفة النوم ففوجئت بصندوق حديدي يقبع في احد الزوايا .

ـ هات يا ولدي اخبيلك القرشين في الصندوق عشان ما يضيعو منـك .

قالت امي ثم حلقت بعينيها واضافت :

ـ كان لنا صندوق حديدي ، احضره والدك من احد معسكرات الانجليز واستخدمه فترة طويلة لاخفاء الملابس والرصاص ... والان لم تعد لنا .. لا ملابس ولا رصاصات ....

ـ لا تشغلي بالك .... فقد قال مدرسنا بالامس ان على جيلنا مهمات ثم شرحها لنا ...

قلت بسرعة في نفسي : هذا افضل مكان لوضع العبوة . نبشت الملابس بسرعة وجعلت العبوة الناسفة تتوسدها في نومة قصيرة لصحوة قادمة ، اغلقت الصندوق وخرجت وانا اهمس بهدوء

ـ كان ابي من احضره وعلى ولده ان يحطمه كي لا يستخدمـه اللصوص ... اعتليت السور فارتطمت البرتقالة بوجهي واهتزت في ظلالها المتراقصة كبسمة ربيعية

قالت امي : الله يسهل عبرتكان بلدنا .. هيك الحبة

وفردت كفيها مشرعتين كنافذة خضراء . قطفتها برفق واحتضنتها لفترة قصيرة ناسيا نفسي فوق السور لكني سرعان ما تنبهت وهبطت بهدوء ، القيت البرتقالة في عبي وامتزجت بظلمات الشارع مخلفا البيت في انتظار زمن الموت .

بدايـــة :

صحت الذكريات في صدري وانا اقف الى جانب بيت في اول الشارع ولهثت رئتاي خلف الحقيقة فراودتني فكرة ... اتجهت على اثرها الى بيتنا اتقديم وحين وقع عليه بصري احسست بالجدران تدخل صدري وبالحجارة تضغط عليه بشدة كانصال حادة .

تذكرت ما قالته امي ذات مرة :

ـ هسة يا بني بقطفوا البرتقان حبة ورا حبة ... ايمته ترجع لدارنا . وبكت .

صمت برهة ثم انطلقت دون تردد نحو بيتنا ... وصممت على القيام بعملية ما وفي صدري ترقد عبوة ناسفة .

فلسطيـن

ربعي المدهون

دراســـات ادبيـة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحـواء	د . زكي مبـارك
من ادبنا المعـاصر	« «	التكسب بالشعـر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفـران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خـوري	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمـة	صلاح عبدالصبور	بابا همنفـواي	أ . ا . هوتشنر